مصـــر وصمودهـــا بعـــد 1967

أ.د/ أحمد هيكل
وزيـــــر الثقافـــــة الأسبـــــق

قد يختلف المحللون والمؤرخون حول أسباب نكسة يونيو 67 كما قد يختلفون حول من تقـــع عليـــه مسئولية هذه النكسة، وهل هو صاحب القرار السياسى أم صاحب القرار العسكرى.. كذلك قد يختلفون حول دور الاتحاد السوفيتى، وهل أخلص قواده لنا حينذاك أم تآمروا علينا، أم – فى أقل تقـــدير – قصـــروا فـــى حقنا.. كل هذه أمور قد اختلف فى شأنها المؤرخون والمحللون، وما زالوا فى أمرها يختلفون.

ولكن الذى لا خلاف عليه أمران، الأمر الأول أن النكسة كانت أليمة وموجعة وشديدة القسوة، بـــل كانت – فى رأيى– من الكوارث القومية التى أصابت مصر – جيشاً ونظاماً وشعباً– بصدمة مروعة أشـــبه بزلزال رهيب مفاجئ، داهم بلداً وثق من ثبات كيانه وصلابة بنيانه، وأطمئن إلى أنه محصن ضد الكوارث ومن كل المخاطر، ولكنه فجأة وجد أن كل ما اطمأن إليه كان وهماً ، وأن كل ما وثق منه كان حلمـــاً وأن الحقيقة المرة أنه أصبح يواجه نكبة لم يتوقعها، ومحنة لم يحسب حساباً لها.. والأمر الثانى الذى لا خـــلاف عليه فى شأن هذه النكسة، هو أنه بقدر ما كان حجم الصدمة رهيباً، كان صمود مصر أمامها عجيباً، بل إن هذا الصمود وما تبعه من نهوض كان من الأمر التى تدخل فى إطار المعجزات..

وذلك أن النكسة التى حدثت قد كسرت جيشاً كبيراً، عرف جنوده بالمواقف البطولية، كمـــا عـــرف قواده بالبسالة وبالروح الوطنية.. كما أن تلك النكسة قد زعزعت نظاماً ثورياً، قدم الكثير مـــن الإيجابيـــات لشعبه، وحقق العديد من الإنجازات لأمته.. وأخيراً صدمت تلك النكسة شعباً طبياً، وثق بنظامه وجيشـــه، وعلق عليهما الآمال الكبار فى أمن الوطن وتحقيق أحلامه الكبرى بقهر العدوى المعتدى، وكســـر شـــوكة الخصم المتغطرس الباغى.. وكان من شأن كسر الجيش القوى – لو لم يكن جيش مصر– أن يظـــل علـــى انكساره، فلا تقوم له قائمة بعد التشرذم والشتات، وفقد الكثير من الرجال والأسلحة المعدات.. كما كان مـــن شأن زلزلة النظام الثورى– ولو لم يكن الأمر يتعلق بمصر– أن يتصدع هذا النظام بسبب ما أصابه، بل أن يتهاوى من جراء ما لحق به.. كذلك كان من شأن صدمة الشعب– لو لم يكن شعب مصر– الـــذى أعطـــى ثقته لنظامه كما علق الآمال على جيشه: أن ينقض من حول النظام، وأن يسحب ثقته من الجـــيش، وتكـــون النتيجة تهاوياً لكل شئ، بل ترديا لكل شئ، وأقل مظاهر تلك النتيجة هزيمة شاملة تأتى على كـــل مكاســـب

البلاد، وتحطم حاضرها وتشيع الظلام فى مستقبلها، وقد يصل الأمر إلى تخلف مؤلم. تحتاج معه مصر إلى سنوات لكى تنهض من جديد كما بدأت منذ أوائل القرن وتظل تكافح- إن استطاعت- حتى يكون لها مرة أخرى جيش قوى، ونظام سوى وشعب ناهض..

أجل لو لم يكن الأمر يتصل بمصر، لكان مختلفاً تماماً الاختلاف، ولكانت نكسة يونيو ضربة قاضية لا يمكن النهوض إلا بعد سنوات طوال، إن صح أن النهوض من مثل هذه الضربة ممكن أصلاً..

ولكن العجيبة التى تدخل نظام الخوارق، أن مصر -رغم فداحة النكسة- قد صمدت أمام ما حدث، وسرعان ما قدمت تنفض الغيار عن جبهتها الشامخة، وتجفف الدموع من عيونها المتطلعة، وراحت ترمم ما تصدع، وتصلح ما تحطم، وتعيد بناء ما تهدم وقامت تفعل ذلك بقوة خارقة وعزيمة جبارة وسرعة سبقت كل المقاييس.. واتخذت مصر ما حدث عبرة، واستنبطت مما كان درساً تعبر منه إلى ما ينبغى أن يكون..

أما الجيش ما جمعت شتاته وأعادت تسليحه وتدريبه، بل وكلفته بمهام جديدة عسيرة، لكى ترد إليه ثقته بنفسه، ولكى تمهد بانتصاره فى تلك المهام الجزئية، لانتصاره الحاسم فى مهمته المرتقبة الكلية، التى يتحقق بها ما تنتظره البلاد من انتصار يقضى على عقدة الانكسار، ويرد إلى مصر حقوقها السليبة، ويعيد رفع أعلامها على سيناء الغالية الحبيبة.. وكان من نماذج تلك المهام التى أثبت فيها الجيش جدارته وحقق بداية نصره، ما حدث من صموده وبسالته فى معركة (رأس العش) ثم ما حدث من ضربه للمدمرة الإسرائيلية (إيلات) بصاروخ من زورق مصرى فى مياه بورسعيد، ثم ما تم من أعمال بطولية قامت بها القوات الخاصة وراء خطوط العدو فى سيناء، وأخيراً ما كان من عمليات مجيدة فى مرحلة حرب الاستنزاف، التى أرقت العدو من جانب، وشحذت الروح المعنوية وأعلنت القدرات القتالية لجيش مصر الناهض من جانب آخر.. وقد توجت تلك الجهود المتعلقة بالجيش المصرى، بهذا الاستعداد العلمى الدقيق للمعركة الفاصلة، حيث دربت قوات مصر المصلحة على أحدث أساليب القتال، وخاصة ما يتعلق بالقتال المرتقب الذى له طبيعة خاصة، وتكتنفه عوائق وموانع رهيبة، واحتياجه إلى عبور أوسع مانع مائى وأعلى ساتر ترابى وأشد حصن حربى، ثم توقعه لخوض معارك ضارية فى سيناء يستعد لها العدو بقوات كثيفة وأسلحة متطورة وخبرات عالية ومساندة غربية باغية ومنقطعة النظير..

أجل، كان ما يشبه الخوارق أن يتم إعداد الجيش المصرى وتأهيله لخوض معركته الرائعة فى أكتوبر المجيد فى مدة قياسية، هى بضع سنوات لا تزيد كثيراً على عدد أصابع اليد الواحدة. وهذا إنجاز غير مسبوق، يذكر لمصر العظيمة وصمودها المذهل، الذى حولته من صبر جميل إلى نهوض أجمل، ثم إلى انتصار استرددت به الحق السليب وأعادت الأرض المغتصبة وداوت الجراح النازفة وأعادت الشموخ إلى جبهتها الباذخة..

وأما النظام الذى زلزلته النكسة، فقد أحتوى الصدمة وأسرع إلى إعادة تنظيمه، وإصلاح أخطائه وتصحيح مسيرته: فتحى ما ثبت إخفائه وضم من له القدرة على إعادة البناء وتصحيح الأخطاء.. بل وصل الأمر بالنظام إلى إدانة من مسهم الاتهام حتى من الأصدقاء والخلصاء، وقدم إلى المحكمة من طهر النظام نفسه، وأصلح خلله، وأعد عدته للمعركة الفاصلة، حتى يخوضها قوى الأركان سليم البنيان، جديراً بأن يحقق الأمل ويعوض ما سبق من فشل.

وكان من أعظم ما حققه النظام من إنجاز بعد نكسة 67 العمل على حشد القوى العربية والإفريقية؟ لتكون سنداً فى المعركة المرتقبة: ثم توظيف كل الإمكانيات التى لدى هذه القوى، لتمثل عوامل فاعلة حين تكون الساعة الفاصلة.. وهكذا عاد التواصل بين مصر وأمتها العربية، وتضاعف التعاون بينهما وبين شقيقاتها الأفريقية، بل تجاوز الأمر ذلك إلى توثيق الروابط بين مصر وكثير من الدول الأسيوية الأوروبية ودول أمريكا اللاتينية: كل ذلك لكى تكون هذه الدول ظهيراً لمصر فى معركتها التى تعد نفسها لخوضها، والتى تحشد من أجلها كل الإمكانيات وشتى الوسائل والأدوات.

وأما الشعب الطيب الذى صدمته النكسة، فإنه- رغم الحزن العميق والمرارة التى ملأت الحلوق- ما لبث أن أزر نظامه، وأرجع النكسة إلى ما كان من تآمر القوى الاستعمارية المؤازرة للعدو الباغى.. ومن هنا رفض الشعب تنحى زعيمة وأصر على بقائه فى موقعه ليواصل المسيرة ويحق النصر. واعتبر الشعب ما كان خسارة معركة لا هزيمة حرب، أو عثرة عابرة، لا نهاية قد أنتهى معها كل شئ وتحطم كل أمل..

كذلك تعاطف الشعب مع جيشه، وعذره فيما كان، وأرجع ما حدث للجيش فى يونيو 1967 ، إلى خلل فى بعض القيادات، لا إلى ضعف أو خذلان فى القوات، كل ذلك علاوة على ما حدث من تآمر القوى المساندة للعدو، ومن تقصير من القوة التى كان الشعب يعلق على مساندتها لمصر آمالاً أكبر، وهى الاتحاد السوفيتى، الذى كانت أفعاله غير مطابقة لوعوده وأقواله..

لهذا كله وقف الشعب إلى جانب جيشه الذى يعاد بناؤه ويتم إعداده على أعلى مستوى، ليخوض معركته القادمة المحطوطة بآمال النصر.. من أجل هذا رضى الشعب بالتقشف، لكى يوفر لجيشه كل ما يحتاج إليه من سلاح وعتاد، وتقبل-عن طيب خاطر- شعار (لا صوت يعلو على صوت المعركة)، وصبر وتحمل الكثير، وهو ينتظر اليوم الذى يرد إليه جيشه كرامته ويعلى فيه من جديد على سيناء رايته.

وقد أثمر كل ذلك على إعادة الروح إلى الجيش العظيم، وملأ تشوقاً إلى المعركة الفاصلة، وتلهفاً إلى النصر المبين. فحسن الإعداد الذى أولته الحكومة للجيش من جانب، ومؤازرة الشعب لهذا الجيش من جانب آخر: ثم الإحساس من جانب الجيش بالمسئولية، وحاسته الشديدة لإثبات جدارته وتحقيق براءته

www.anwarsadat.org

والأخذ بثأر أمته: كل ذلك جعل الجيش على أعلى مستوى من الروح المعنوية والقدرة القتالية والاستعدادات العسكرية، والانتظار على أحر من الجمر ليوم يتحقق فى النصر..

وقد عايشت ذلك بنفسى، حين دعتنى إدارة الشئون المعنوية بالقوات المسلحة إلى حضور ندوة فكرية فى معسكر الجلاء بالإسماعيلية –قبل حرب أكتوبر بشهور قليلة– وكان يشارك فى هذه الندوة، الأساتذة عبد المنعم الصاوى ، يوسف إدريس، وصلاح عبد الصبور– رحمهم الله– ثم الأستاذ ثروت أباظة وكاتب هذه السطور.. وفى هذا اللقاء الكبير، والذى حضره جمع غفير من الضباط والجنود، وأحسست بأن هؤلاء المقاتلين يتلهفون على اليوم الذى يلاقون فيه عدوهم ليثبتوا جدارتهم بالانتساب إلى جيشهم وشعبهم وأمتهم، وليؤكدوا براءتهم من نكسة سابقة لم يكن لهم فيها أى ذنب.. وقد تحدثنا إلى هؤلاء الضباط والجنود فى أمور كثيرة، ولكن الأمر الذى كان يتصدر أحاديثهم هم، هو السؤال عن يوم القتال، والتصريح الواضح بالضيق الشديد من طول الانتظار ليوم الانتصار. وكنا كلما حاولنا تحويل الحديث إلى أمور تتصل بالثقافة أو الأدب أو الفن، غلبنا حديثهم عن تمام استعدادهم وعظيم تلهفهم إلى المعركة التى يرفعون فيها رأس بلدهم ويعلون راية أمتهم.. وكم حملونا أمانة تبليغ رغبتهم إلى المسئولين ما سمحت لنا الظروف وتهيأت الأسباب، وهى رغبة واحدة يجمع عليها كل الضباط والجنود، وهى التعجيل بالمعركة التى أعدوا أنفسهم لها، ولم يعد أمامهم أمل إلا أن يخوضوها منتصرين أو مستشهدين.

هذا ما كان من ظاهرة الصمود المصرى بعد يونيو 1967، وما كان من إنجاز يصل إلى حد الإعجاز، من أمة أصيبت بكارثة مدمرة كان من شأنها أن تقضى عليها، فإذا بها تتجاوزها وتعلو فوقه، وتنهض أقوى ما تكون صلابة واستعداداً، لكى تحول الهزيمة إلى نصر والحزن الغائر إلى فرع غامر، ونكسر يونيو الحزين إلى نصر أكتوبر المبين.

وإذا كان الشعر يتخذ أحياناً وثائق للتاريخ: فإن لدي قصيدة من الشعر الذى كتب بعد نكسة 67 معبراً عن واقع مصر حينذاك فى صمودها أمام ما حدث من حدث أليم، فى إصرارها على تجاوز هذا الحدث إلى النصر العظيم.. وهذه القصيدة التى نشرت فى مجلة المجلة فى أعقاب النكسة، أقول فيها مصوراً شعور الشعب المصرى كله فى ذلك الوقت.

ليس منا من استكان وذلا ... ما انحنينا وإن بكينا كشكلى ونحنا
قد بكينا على العدالة تغتال ... على المبادئ قتلى
عليهم الله ما بخلنا بروح ... فتراب الأوطان أسمى وأغلى
ما وردنا الصحراء نزهة صيف ... فلقاء العدا ألذ وأحلى

www.anwarsadat.org

غير أن العدا تدلى ستاراً   يختفى خلفه التآمر نذلاً
وعلى كفه الدمار لشعب   قام يحمى حمى ويطرح غلا
كله أيامه كفاح وصبر   وإباء ينهاه أن يستغلا
لم يكن ما جرى صراعاً وحرباً   يتبارى فيه الفوارس بذلاً
إنما كان غاية الغدر واللؤم   ولسنا للغدر واللؤم أهلاً
ما طعنا وإنما طعن الحق   فأغفى يضم فى القلب نصلاً
ما طعنا وإنما ضرب السلم   فصارت رباه قفراً وفحلاً

* * * *

كان ما كان، ليس ينفع نوح   وغداً يبصر التآمر هولاً
كل ما ضاع جولة، ولنا النصر   فأهلاً بجولة الثأر أهلاً
قسماً بالشهيد وسد قفراً   تاركاً خلفه عروساً وطفلاً ينذى
قسماً بالدم المراق على البيد   حصى ويصبغ رملاً
قسماً بالأسير كبل حراً   بعد ما أحسن القتال وأبلى
قسماً بالدموع تنزف نزفا   من قلوب على الأحبة تبكى
سنحيل الأحزان صبراً وعزماً   وانتصاراً ونتبع القول فعلاً
سنزيل العدوان عن كل شبر   ونعيد البناء أقوى وأعلى
سنحل العدا قبوراً وإلا   فظلام القبور بالعرب أولى
سنعيد الحياة فوق ثرانا   جنة للسلوم تبسط ظلاً
وحقولاً تموج بالأمل الأخضر   تجنى وفراً وتقسم عدلاً
وألوفاً من المصانع تمضى   فى سباق الرخاء تهدر عجلى
وجباها شماء لا تنحنى الدهر   لغير الإله عز وجلاً
قد دعوناه أن يقود خطانا   هو عن قاصديه لن يتخلى

www.anwarsadat.org